ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئًا يبالي به، والدعاء العبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستاهلون شيئًا من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبأت به ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبأ على كما تقول: ما اكترثت له أي: ما اعتددت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبأ بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن قُلْتَ: إلى من يتوجه هذا الخطاب **قُلْتُ:** إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لزامًا وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزامًا، وقرئ لزامًا بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبات والثبوت والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾.

﴿طسم﴾ بتفخيم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾.

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

البخع أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿باخع﴾ نفسك على الإضافة.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾.

أراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ﴿ننزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحًا ونظيره فأصدق وأكن كأنه قيل: أصدق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فتظل أعناقهم.

فإن قُلْتَ: كيف صح مجيء خاضعين خبرًا عن الأعناق؟ **قُلْتُ:** أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة كان الأهل غير مذكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿لي ساجدين﴾[2] وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصدور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾.

أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرًا إلا جددوا إعراضًا عنه وكفرًا به.

فإن قُلْتَ: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء! **قُلْتُ:** إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأنّ من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقًا لا محالة ولم يظنّ به التكذيب، ومن كان مصدقًا به كان موقرًا له ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ما﴾ الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير، زيلعي 2/469.

(2) سورة يوسف، الآية: 4.

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد في بابه يقال: وجه كريم إذا رضي في حسنه وجماله وكتاب كريم مرضي في معانيه وفوائده وقال: حتى يشق الصفوف من كرمه أي: من كونه مرضيًا في شجاعته وبأسه والنبات الكريم المرضي فيما يتعلق به من المنافع.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

﴿إن في﴾ إنبات تلك الأصناف **﴿لآية﴾** على أن منبتها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن **﴿أكثرهم﴾** مطبوع على قلوبهم غير مرجوّ إيمانهم.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ في انتقامه من الكفرة **﴿الرحيم﴾** لمن تاب وآمن وعمل صالحًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين كم وكل ولو قيل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم؟ **قُلْتُ:** قد دلّ كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة[1] فهذا معنى الجمع بينهما وبه نبه على كمال قدرته.

فإن قُلْتَ: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ **قُلْتُ:** يحتمل معنيين أحدهما أن النبات على نوعين نافع، وضار فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخاص ذكر الضار والثاني أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ويصفهما جميعًا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون.

فإن قُلْتَ: فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيث كيف قال إن في ذلك لآية؟ وهلا قال آيات! **قُلْتُ:** فيه وجهان أن يكون ذلك مشارًا به إلى مصدر أنبتنا فكأنه قال: إن في الإنبات لآية أو آية وأن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية، وقد سبقت لهذا الوجه نظائر سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين وإن شاء عبر بقوم فرعون وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، وشرارتهم ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم قرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى: ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة.

قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: **﴿ألا يتقون﴾**! **قُلْتُ:** هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبًا لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون لا يتقون حالاً من الضمير في الظالمين أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال وأمّا من قرأ ألا تتقون على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه وحمي غضبه قطع مبالثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله ألم تستح من الناس.

فإن قُلْتَ: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون! **قُلْتُ:** إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم، وإلقائه إلى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرًا لها واعتبارًا بموردها، وفي ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون كقوله: ألا يا اسجدوا.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾.

﴿ويضيق﴾ و﴿ينطلق﴾ بالرفع لأنهما معطوفان على خبر أنّ وبالنصب لعطفهما على صلة أن والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل خوف التكذيب، وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة.

فإن قُلْتَ: في النصب تعليق الخوف بالأمور للثلاثة وفي جملتها نفي انطلاق اللسان وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع وذلك كان واقعًا فكيف جاز تعليق الخوف به؟ **قُلْتُ:** قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته وقيل: بقيت منها بقية يسيرة.

فإن قُلْتَ: اعتذارك هذا يردّه الرفع لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر

---

(1) قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير الأنواع، والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنه لو أسقطت كل، فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من= = الصنف الفلاني، لكنت مكنياً عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت كلا فقد أتيت بتكريره آحاد كل صنف، لا آحاد صنف معين، والله أعلم.

اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لسانًا﴾[1] ومعنى ﴿فارسل إلى هرون﴾: أرسل إليه جبرائيل واجعله نبيًا وازرني به واشدد به عضدي وهذا كلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال: فأرسل إلى هرون فجاء بما يتضمن معنى: الاستنباء ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرًا﴾[2] حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أوّلها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر، فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أنّ الله من ورائه؟ **قُلْتُ:** قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

أراد بالذنب قتله القبطي وقيل: كان خباز فرعون واسمه: فاتون، يعني: ولهم عليّ تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل، فأخاف أن يقتلوني به فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنبًا كما سمى جزاء السيئة سيئة.

فإن قُلْتَ: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللاً وجعلتها تمهيدًا للعذر فيما التمسه فما قولك في هذه الرابعة؟ **قُلْتُ:** هذه استدفاع للبلية المتوقعة وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة فكيف يكون تعللاً والدليل عليه ما جاء بعده من كلمة الردع والموعد بالكلاءة والدفع.

﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

جمع الله له الاستجابتين معًا في قوله: ﴿كلا فاذهبا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه الموازرة بأخيه، فأجابه بقوله: اذهبا أي: اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: فاذهبا! **قُلْتُ:** على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ فاذهب أنت وهرون وقوله: ﴿معكم مستمعون﴾ من مجاز الكلام نريد أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه فأظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه، ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ أو يكون مستمعون مستقرًا ومعكم لغوًا.

فإن قُلْتَ: لم جعلت مستمعون قرينة معكم في كونه من باب المجاز والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع! **قُلْتُ:** ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا﴾[3] ويقال: استمع إلى حديثه وسمع حديثه أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله ﷺ: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم[4].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

فإن قُلْتَ: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: إنا رسولا ربك! **قُلْتُ:** الرسول يكون بمعنى: المرسل وبمعنى: الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته وجعل ههنا بمعنى: الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور قال:

الكنى إليها وخير الرسو ... ل أعلمهم بنواحي الخبر

فجعله للجماعة والشاهد في الرسول بمعنى: الرسالة قوله:

لقد كذب الواشون ما فهمت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول

ويجوز أن يوحد لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكمًا واحدًا فكأنهما رسول واحد أو أريد أنّ كل واحد منا.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إن أرسل﴾ بمعنى أي: أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال، وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا لما في الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة، ونحو ذلك ومعنى هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إنّ ههنا إنسانًا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه فأتيا إليه الرسالة فعرف موسى.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

فقال له: ﴿ألم نربك﴾ حذف فأتيا فرعون فقولا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل الوليد الصبي لقرب عهده من الولادة وفي رواية عن أبي عمرو ﴿من عمرك﴾ بسكون الميم ﴿سنين﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي

(1) سورة القصص، الآية: 34.
(2) سورة الفرقان، الآية: 36.
(3) سورة الجن، الآية: 1.
(4) قال الزيلعي: غريب جدًا، 2/473.

عشرة سنة وفرّ منهم على أثرها والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي فعلتك بالكسر وهي قتلة القبطي لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل وأمّا الفعلة فلأنها كانت وكزة واحدة عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾.

بقوله[1]: ﴿وفعلت فعلتك﴾، التي فعلت ﴿وأنت من الكافرين﴾ يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعايشهم بالتقية فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة، ومن بعض الصغائر فما بال الكفر ويجوز أن يكون قوله: وأنت من الكافرين حكمًا عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعًا منه أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم يشهد لذلك قوله تعالى: ويذرك وآلهتك، وقرئ إلهتك فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو.

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾.

﴿من الضالين﴾ أي: الجاهلين وقراءة ابن مسعود من الجاهلين مفسرة والمعنى من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه كما قال: يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل أو الذاهبين عن الصواب، أو الناسين من قوله: أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه وبرّأ ساحته بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربأ بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمي نعمته إلا نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدًا يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدًا قال:

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاؤا وعبدان

فإن قُلْتَ: إذا جواب وجزاء معًا والكلام وقع جوابًا لفرعون، فكيف وقع جزاء؟ **قُلْتُ:** قول فرعون: ﴿وفعلت فعلتك﴾ فيه معنى إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى: نعم فعلتها، مجازيًا لك تسليمًا لقوله لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازي بنحو تلك الجزاء.

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾.

فإن قُلْتَ: لم جمع الضمير في ﴿منكم﴾ و﴿خفتكم﴾ مع إفراده في ﴿تمنها﴾ و﴿عبدت﴾! **قُلْتُ:** الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه، ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله: إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد.

فإن قُلْتَ: تلك إشارة إلى ماذا و﴿أن عبدت﴾ ما محلها من الإعراب؟ **قُلْتُ:** تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك ونظيره قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوع﴾[2] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿أن﴾ في موضع نصب المعنى إنما صارت نعمة علي لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي، ولم يلقوني في اليم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾.

لما قال له: بوابه إن هنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له: عند دخوله ﴿وما رب العالمين﴾ يريد أي شيء رب العالمين؟ وهذا السؤال لا يخلو إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت، وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء هو على الإطلاق تفتيشًا عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وإمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه والسائل عنه متعنت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكارًا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما جاب موسى بما أجاب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله: جننه إلى قومه وطنز به[3] حيث سماه رسولهم فلما ثلث بتقرير آخر احتدّ واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهًا غيري.

---

(1) قال أحمد: ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملاً مبهماً إيذاناً بأنه لفظاعته مما لا ينطق به، إلا مكنياً عنه، ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام، قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم إذ يغشى السدرة ما يغشى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾. ومثله كثير. والله أعلم.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) طنز به: أي سخر به.

وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: **﴿وما بينهما﴾** على التثنية والمرجوع إليه مجموع! **قُلْتُ:** أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال: في الهيجا جمالين.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿إن كنتم موقنين﴾** وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ **قُلْتُ:** معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾.

فإن قُلْتَ: ومن كان حوله! **قُلْتُ:** أشراف قومه قبل كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة.

فإن قُلْتَ: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ **قُلْتُ:** قد عمم أوّلاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان فبهت الذي كفر.

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾.

وقرئ: **﴿رب المشارق والمغارب﴾** الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قُلْتَ: كيف قال: أوّلاً **﴿إن كنتم موقنين﴾** وآخرًا: **﴿إن كنتم تعقلون﴾؟ قُلْتُ:** لاين أوّلاً فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض إنّ رسولكم لمجنون بقوله: **﴿إن كنتم تعقلون﴾**

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾.

فإن قُلْتَ: ألم يكن لاسجننك أخصر من **﴿لأجعلنك من المسجونين﴾** ومؤديًا مؤداه! **قُلْتُ:** أما أخصر فنعم وأما مؤدّ مؤدّاه فلا لأنّ معناه: لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها، ولا يسمع فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾.

الواو في قوله[1]: **﴿أولو جئتك﴾** واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك، ولو جئتك بشيء مبين أي: جائيًا بالمعجزة.

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾.

وفي قوله[2]: **﴿إن كنت من الصادقين﴾** أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوّة والحكيم لا يصدق الكاذب، ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا وخفي على ناس من أهل القبلة حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات، وتقديره: **﴿إن كنت من الصادقين﴾** في دعواك أتيت به فحذف الجزاء لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

﴿ثعبان مبين﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة

---

(1) قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيفه من تأليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة، وإن كيده لفي تضليل بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة، وأنّ كلاً منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيباً من فرعنته، حيث يقول: أنا ربكم الأعلى؛ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون؛ لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد، فمن ثَم أشركوا به وهم لا يشعرون، ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأنلية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبتلي الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإنّ توهم ناظر بعين الهوى والغرض معنون عما في قلبه من مرض، أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء = حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء، قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوّزه العقل، ولو قدح الإمكان العقلي في علم حاصل يقيني للزم الآن الشكّ في أنّ جبال الأرض قد عادت تبراً أحمر، وترابها مسكاً أنفر، وانقلبت البحار دماً عبيطاً؛ لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان، إلا ذو خبل وعتوٍ وعمي وعَمَهٍ، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال؛ فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما، ثم يقول له: عد فيعود حياً، فيقول له: ما ازددت فيك إلا بصيرة أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله ﷺ، فيهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه، قال النبي ﷺ: «وهو حينئذ خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض، أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه لم يشككه ذلك في معلومه، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه، ولكن يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت ويقول: فرعون أسألك بالذي أرسلك ألا أخذتها، فأخذها فعادت عصا.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿للناظرين﴾ دليل على أن بياضها كان شيئًا يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضًا نوريًا روى أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها فأخرج يده، فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما العامل في حوله! قُلْتُ: هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدو في الظرف والعامل في النصب المحلي، وهو النصب على الحال قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه وانتفخ سحره خوفًا وفرقًا، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم يزعمه عبيده وهو إلههم أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه، وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه وقوله: ﴿إنّ هذا لساحر عليم﴾ قول: باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم.

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿تامرون﴾ من المؤامرة وهي المشاورة، أو من الأمر الذي هو ضدّ النهي جعل العبيد آمرين وربهم مأمورًا لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة، و«ماذا» منصوب إما لكونه في معنى المصدر وإما لأنه مفعول به من قوله أمرتك الخير.

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾.

قرئ: ﴿أرجئه﴾ و﴿أرجه﴾ بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته ومنه المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق، ويقولون هم مرجؤن لأمر الله[1] والمعنى: آخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل: احبسه ﴿حاشرين﴾ شرطًا يحشرون السحرة وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر﴾ بقولهم: ﴿بكل سحار﴾ فجاؤا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه.

وقرأ الأعمش: ﴿بكل ساحر﴾.

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾.

اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾[2] والميقات ما وقت به أي: حدد من زمان أو مكان منه مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿هل أنتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له أنّ الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول: تأبط شرا:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا ... أو عبد رب أخا عون بن مخراق

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾.

يريد ابعثه إلينا سريعًا ولا تبطئ به ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ أي: في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه وليس غرضهم باتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام. وقرئ نعم بالكسر وهما لغتان.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾.

ولما كان قوله: ﴿إن لنا لأجرًا﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله: ﴿وإنكم إذًا لمن المقربين﴾ معطوفًا عليه ومدخلاً في حكمه دخلت إذًا قارة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى القربة عنده والزلفى.

فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾.

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقًا ببعض أسمائه أو صفاته كقولك: بالله والرحمن وربي ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم

---

(1) قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الإرجاء حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لأهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون أمرهم إلى الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء غفر لهم، فإن كانت المرجئة هم المؤمنون= بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ اللهم فاشهد أنا مرجئة.

(2) سورة طه، الآية: 59.

صادقون[1]، ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿ما يأفكون﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، وكيدهم ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين، أو إفكهم سمى تلك الأشياء إفكًا مبالغة، روي أنهم قالوا: إن بك ما جاء به موسى سحرًا فلن يغلب وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من الله، فآمنوا وعن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾.

وإنما عبر عن الحرور بالإلقاء لأنه نكر مع الإلقاآت، فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضًا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بانفسهم إلى الأرض ساجدين كانهم أخذوا فطرحوا طرحًا.

فإن قُلْتَ: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ **قُلْتُ:** هو الله عزّ وجل بما خولهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ولك أن لا تقدر فاعلاً لأنّ ألقوا بمعنى خرّوا وسقطوا.

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين لأنّ فرعون لعنه الله كان يدعي الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي يدعو إليه هذان والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿فلسوف تعلمون﴾ أي: وبال ما فعلتم.

قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾.

الضر والضير والضور واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، والثواب العظيم مع الأعواض الكثيرة أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف، والمعنى: لا ضير في ذلك أو علينا.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾.

﴿أن كنا﴾ معناه لأن كنا وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم أو من رعية فرعون أو من أهل المشهد، وقرئ: **﴿إن كنا﴾** بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل بأمره المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم **﴿أوّل المؤمنين﴾** ونظيره قول: العامل لمن يؤخر جعله إن كنت علمت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾[2] مع علمه أنهم لا يخرجوا إلا لذلك.

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾.

قرئ: **﴿أسر﴾** بقطع الهمزة ووصلها وسر **﴿إنكم متبعون﴾** علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون، وجنوده آثارهم والمعنى أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فأطبقه عليهم فأهلكهم وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت، ثم انبحوا الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتًا على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزًا فطيرًا فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فرعون في ألف حصان سوى الإناث فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفًا وسماهم شرذمة قليلين.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿إن هؤلاء﴾ محكى بعد قول: مضمر والشرذمة الطائفة القليلة ومنها قولهم: توب شراذم للذي بلى وتقطع قطعًا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً

---

(1) 1 ـ أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان والنذور، باب: الحلف بالأمهات، (الحديث: 3769).

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، باب: لا تحلفوا = بآبائكم، (الحديث: 7401)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: النهي من الحلف بغير الله تعالى، الحديث: (3. 1646).

(2) سورة الممتحنة، الآية: 1.

واختار جمع السلامة الذي هو للقلة[1]، وقد يجمع القليل على قلة وقلل ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه.

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾.

وقرئ: ﴿حذرون﴾ وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة، فالحذر اليقظ والحاذر الذي يجدّد حذره وقيل: المودّى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذرًا واحتياطًا لنفسه والحادر السمين القوي قال:

أحب الصبي السوء من أجل أمّه ... وأبغضه من بغضها وهو حادر

أراد أنهم أقوياء أشداء وقيل: مدججون في السلاح قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾.

وعن مجاهد سماها: كنوزًا لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله، والمقام المكان يريد المنازل الحسنة، والمجالس البهية وعن الضحاك: المنابر وقيل: السر في الحجال.

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾.

﴿كذلك﴾ يحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي، وصفناه والجر على أنه وصف لمقام أي: ﴿مقام كريم﴾ مثل ذلك المقام الذي كان لهم والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك.

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿فاتبعوهم﴾ فلحقوهم، وقرئ: فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقًا إذا طلعت.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾.

وقرئ فلما تراءت الفئتان إنا لمدّركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشيء إذا تتابع ففني ومنه قوله تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة﴾[2] قال: الحسن جهلوا علم الآخرة وفي معناه بيت الحماسة:

أبعد بني أمي الذين تتابعوا ... أرجي الحياة أم من الموت أجزع

والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، الفرق الجزء المتفرق منه.

﴿سيهدين﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾.

وقرئ: ﴿كل فلق﴾ والمعنى واحد والطود الجبل العظيم المنطاد في السماء.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿وأزلفنا ثم﴾ حيث انفلق البحر.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿الآخرين﴾ قوم فرعون أي: قربناهم من بني إسرائيل أو أدنينا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحدًا وقدمناهم إلى البحر، وقرئ: ﴿وأزلقنا﴾ بالقاف أي: أزللنا أقدامهم والمعنى: أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبسًا وقد ثل عرشها ... وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبسًا فيزلقهم فيه، عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط، فيقول: رويدكم يلحق آخركم فلما انتهى موسى إلى البحر، قال له مؤمن آل فرعون، وكان بين يدي موسى: أين أمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط طريق، وروي أنّ يوشع قال: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال موسى: ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا، وروي أنّ موسى قال عند ذلك: يا مَن كان قبل كل شيء والمكوّن لكل شيء، والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: أساف.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿إنّ في ذلك لآية﴾ اية آية وآيه لا توصف وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم ولا آمن بالله وبنو إسرائيل الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة.

---

(1) قال أحمد: ووجه آخر في تقليلهم يكون خامساً، وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم معاً: زيد جياع مبالغة في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشرذمة قليلة، = كما أفرد في قوله: ﴿كم من فئة قليلة﴾ ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة، لكن يبقى النظر في أنّ هذا السر يبقي الوجوه المذكورة على ما هي عليه، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه فتأمّله، والله الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 66.

obeikandl.com

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر: ما مالك وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿ما تعبدون﴾ سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا: أصنامًا كقوله تعالى: ﴿ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[1] ﴿ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾[2] ﴿ماذا انزل ربكم قالوا خيرًا﴾[3] **قُلْتُ:** هؤلاء قد جاؤا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار الا تراهم كيف عطفوا على قولهم ﴿نعبد﴾.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾.

﴿فنظلّ لها عاكفين﴾، ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده، ومثاله أن تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك، فيقول: ألبس البرد الأتحمى فأجز نيله بين جواري الحي وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾.

لا بد في ﴿يسمعونكم﴾ من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة: ﴿يسمعونكم﴾ أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعًا مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية، ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا: هل سمعوا أو اسمعوا قط وهذا أبلغ في التبكيت، لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم، فإنّ التقدّم والأوّلية لا يكون برهانًا على الصحة والباطل لا ينقلب حقًّا بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا﴾[4] ولأنّ المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾.

وإنما قال: ﴿عدوّ لي﴾ تصويرًا للمسألة في نفسه على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلاً وبني عليها تدبير أمره لينظروا، فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمّل فيه فربما قاده التأمّل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعيّ رضي الله تعالى عنه: أنّ رجلاً واجهه بشيء، فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى ادب وسمع رجلاً ناسًا يتحدّثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. والعدوّ والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة قال:

وقوم على ذوي مئرة أراهم عدوًا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدوّ﴾[5] شبهًا بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿إلا رب العالمين﴾ استثناء منقطع كأنه قال: ولكن رب العالمين.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾.

﴿فهو يهدين﴾ يريد أنه حين أتمّ خلقه، ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصًا، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ومن هداه لكيفية الارتضاع إلى غير ذلك من هدايات المعاش، والمعاد.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾.

وإنما قال: ﴿مرضت﴾ دون أمرضني لأنّ كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه[6] وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل: لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا: التخم.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 219.
(2) سورة سبأ، الآية: 23.
(3) سورة النمل، الآية: 30.
(4) سورة مريم، الآية: 82.
(5) سورة الكهف، الآية: 50.
(6) قال أحمد: والذي ذكره غير الزمخشري: أنّ السرّ في إضافة المرض إلى نفسه التأدّب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعلّ الزمخشري إنما عدل عن هذا؛ لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى الله تعالى، = وهي أشدّ من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت. فإنّ المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه إلى الله تعالى، ويمكن أن يفرّق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب، بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته =

وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾.

وقرئ: ﴿خطاياي﴾ والمراد ما يندر منه من بعض الصغائر لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين وقيل هي قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ وقوله لسارّة: ﴿هي أختي﴾ وما هي إلا معاريض كلام وتخييلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار.

فإن قُلْتَ: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة فماله أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له! **قُلْتُ:** الجواب ما سبق لي أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم، ويدل عليه قوله: أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة، وفيه تعليم لأممهم وليكون لطفًا لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم.

فإن قُلْتَ: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا! **قُلْتُ:** لأنّ أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم.

رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾.

الحكم الحكمة أو الحكم بين الناس بالحق وقيل: النبوّة لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله، والإلحاق بالصالحين أن يوافقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ولقد أجابه حيث قال: وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾.

والإخزاء من الخزي وهو الهوان ومن الخزاية وهي الحياء وهذا أيضًا من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي ﴿يبعثون﴾ ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه يعني: ولا تخزني يوم يبعث الضالون، وأبي فيهم.

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾.

﴿إلا من أتى الله﴾ إلا حال من أتى الله ﴿بقلب سليم﴾ وهو من قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع، وما ثوابه إلا السيف وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى: الغنى كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أنّ غناه في دنياه بماله وبنيه، ولك أن تجعل الاستثناء منقطعًا ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال والمراد بها سلامة القلب وليست هي من جنس المال، والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى، وقد جعل من مفعولاً لينفع أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محله في الإخلاص أن حكى استثناء هذا حكاية راض بإصابته فيه، ثم جعله صفة له في قوله: وإنّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ومن بدع التفاسير تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أوّلاً عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليها ابتهال الأوّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾.

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها.

وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾.

والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾[1] وقال: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[2]، يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات فتجعل النار بمرأى منهم فيهلكون غمًّا في

= إلى الله تعالى، وأمّا المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاه محققاً، فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً؛ لأنه أمر لا بدّ منه، وأمّا المرض فلما كان قد= يتفق وقد لا أورده مقروناً بشرط: إذا فقال: وإذا مرضت، وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك، والله أعلم.

(1) سورة قّ، الآية: 31.

(2) سورة الملك، الآية: 27.

كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم.

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾.

فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار.

فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾.

وهو قوله: ﴿فكبكبوا فيها هم﴾ أي: الآلهة ﴿والغاوون﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها. اللهم أجرنا منها يا خير مستجار.

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿وجنود إبليس﴾ شياطينه أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾.

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم، ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كقوله: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[1] وعن السدّي: الأوّلون الذين اقتدينا بهم وعن ابن جريج: إبليس وابن آدم القاتل لأنه أوّل من سن القتل وأنواع المعاصي.

فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾.

﴿فما لنا من شافعين﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين.

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿ولا صديق﴾ كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال الله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾[2] أو ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأنّ ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم. و﴿الحميم﴾ من الاحتمال وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص.

فإن قُلْتَ: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ **قُلْتُ**: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق[3] ألا ترى أنّ الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدة لشفاعته رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك، فأعز من بيض الأنوق وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق، فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع.

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

الكرة الرجعة إلى الدنيا.

و﴿لو﴾ في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾.

القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة، ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب، ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرد[4] قيل: أخوهم لأنه كان منهم من قول العرب: يا أخا بني تميم؛ يريدون يا واحدًا منهم ومنه، بيت الحماسة.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾.

كان أمينًا فيهم مشهورًا بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾.

﴿وأطيعون﴾ في نصحي لكم وفي ما أدعوكم إليه من الحق.

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾.

﴿عليه﴾ على هذا الأمر وعلى ما أنا فيه يعني: دعاءه، ونصحه.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الزخرف، الآية: 67.

(3) قال أحمد: العجب أنّ الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد، ثم لو كان المراد الإفراد، لكان أعم لأنه في سياق النفي فينفي الواحد، فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له، والله أعلم.

(4) قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع، بأنّ كل من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق، فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله﴾ لأنّ التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل، والله أعلم.

ومعنى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾. فاتقوا الله في طاعتي وكرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحدة منهما بعلة جعل علة الأوّل كونه أمينًا فيما بينهم، وفي الثاني حسم طعمه عنهم، وقرئ واتباعك جمع تابع كشاهدوا شهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد في واتبعك.

﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾.

وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكثير في قوله: ﴿الذين هم أراذلنا﴾[1] والرذالة والنذالة الخس والدناءة وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياكة والحجامة والصناعة لا تزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول: في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الغاغة. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿وما علمي﴾، وأي شيء علمي والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم في قوله الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام فيفسر قولهم الأرذلين بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال، وفساد العقائد ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم وإن كان لهم عمل سيء فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز.

إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿لو تشعرون﴾ ذلك ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم وقصد بذلك ردّ اعتقادهم، وإنكار مَن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسبًا فإن الغني غنى الدين والنسب نسب التقوى.

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعًا في إيمانكم.

إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾.

وما عليّ إلا أن أنذركم إنذارًا بينًا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم.

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾.

ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني، وآذوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم.

فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿بيني وبينهم﴾ والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات.

فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿الفلك﴾ السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾[3] فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل كما كسروا فعلاً على فعل لأنهما أخوان في قولك: العرب والرشد والرشد فقالوا: أسد وأسد وفلك وفلك ونظيره بعير هجان وإبل هجان ودرع دلاص ودروع دلاص، فالواحد بوزن كناز والجمع بوزن كرام، والمشحون: المملوء يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً.

أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾.

قرئ: ﴿بكل ريع﴾ بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع قال: المسيب بن علس:

في الآل يرفعها ويخفضها ريع يلوح كأنه سحل

ومنه قولهم: كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم، وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طرقهم أعلامًا طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم وعن مجاهد بنوا بكل ريع بروج الحمام[4].

---

(1) سورة هود، الآية: 27.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6)، (الحديث: 7).

(3) سورة فاطر، الآية: 12.

(4) قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ذم ذلك على = لسان نبينا ﷺ حيث وصف الكائنين آخر الزمان، بأنهم يتطاولون في البنيان، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعاً كبيراً؛ لأنهم يعبثون، فعبر عن ترفعهم إلى =

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾.

والمصانع: مآخذ الماء وقيل: القصور المشيدة والحصون **﴿لعلكم تخلدون﴾** ترجون الخلود في الدنيا أو تشبه حالكم حال من يخلد، وفي حرف أبيّ: كأنكم، وقرئ: تخلدون بضم التاء مخففًا ومشددًا.

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾.

﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط، أو سيف كان ذلك ظلمًا وعلوًا، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبتون متفكرين في العواقب بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصلها مستشهدًا بعلمهم، ونلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال:

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾.

﴿أمدكم بما تعلمون﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة فهو قادر على الثواب والعقاب فاتقوه ونحوه قوله تعالى: **﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾**[1].

أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قرن البنين بالأنعام؟ **قُلْتُ:** هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾.

فإن قُلْتَ: لو قيل **﴿أوعظت﴾** أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد! **قُلْتُ:** ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق لأنّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾.

من قرأ: **﴿خلق الأولين﴾** بالفتح فمعناه أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرصهم كما قالوا: **﴿أساطير الأوّلين﴾**[2]، أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة، فمعناه: ما هذا الذي نحن عليه من الدين **﴿إلا خلق الأوّلين﴾** وعادتهم كانوا يدينونه ويعتقدونه ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة، والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكتب إلا عادة الأوّلين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾.

﴿أتتركون﴾ يجوز أن يكون إنكارًا لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه، وأن يكون تذكيرًا بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة **﴿في ما ههنا﴾** في الذي استقر في هذا المكان من النعيم.

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾.

ثم فسره بقوله: **﴿في جنات وعيون﴾** وهذا أيضًا إجمال ثم تفصيل.

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾.

فإن قُلْتَ: لم قال **﴿ونخل﴾** بعد قوله: **﴿في جنات﴾** والجنة تتناول البخل أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى أنهم ليذكرون الجنة، ولا يقصدون إلا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل، قال زهير: تسقى جنة سحقًا! **قُلْتُ:** فيه وجهان أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهًا على انفراده عنها بفضله عليها وأن يريد بالجنات غيرها من الشجر لأنّ اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، الطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه والهضيم اللطيف الضامر من قولهم كشح هضيم وطلع إناث النخل فيه لطف وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون فنكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه لأن الإناث، ولادة التمر والبرني أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير وإذا كثر الحمل هضم وإذا قل جاء فاخرًا وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

قرأ الحسن **﴿وتنحتون﴾** بفتح الحاء.

= المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البينان بالعبث، وأما تاويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات، وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ففيه بعد من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغير = مطبق، وما يجري مجراه ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثاً، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 30.

(2) سورة المطففين، الآية: 13.

وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾.

وقرئ: ﴿فرهين﴾ وفارهين والفراهة الكيس والنشاط ومنه خيل فرهة استعير لامتثال الأمر وارتسامه طاعة الآمر المطاع أو جعل الأمر مطاعًا على المجاز الحكمي، والمراد الأمر ومنه قولهم: لك عليّ إمرة مطاعة. وقوله تعالى: ﴿واطيعوا أمري﴾.

ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: ﴿ولا يصلحون﴾ ؟ **قُلْتُ:** فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح المسحر الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله وقيل: هو من السحر الرئة، وأنه بشر.

قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾.

الشرب النصيب من الماء نحو السقي والقيت للحظ من السقي والقوت، وقرئ: بالضم. روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبًا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبًا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعًا. وعن قتادة: وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء.

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾.

﴿بسوء﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأنّ الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد، وروي أن مسطعًا الجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار، وروي أنّ عاقرها قال لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم.

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾.

فإن قُلْتَ: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ **قُلْتُ:** لم يكن ندمهم ندم تائبين، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابًا عاجلاً كمن يرى في بعض الأمور أيًا فاسدًا ويبنى عليه ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعيّ أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة وذلك عند معاينة العذاب وقال الله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾[1] الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم أراد بالعالمين الناس.

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾.

أي: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام على فرط كثرتهم، وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة ذكر أنهم كأن الإناث قد أعوزتكم، أو أتأتون أنتم من بين عداكم من العالمين الذكر أن يعني: أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان.

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾.

﴿من أزواجكم﴾ يصلح أن يكون تبيينًا لما خلق، وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهنّ وفي قراءة ابن مسعود ﴿ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم﴾ وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم[2]، العادي المتعدّي في ظلمه المتجاوز فيه الحدّ ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾.

﴿لئن لم تنته﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكونن﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من

---

(1) سورة النساء، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير الماتي، وبيانه أنّ من لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمّهم بترك الأزواج، ولا شك أنّ ترك الأزواج مصموم إلى إتيان الذكران، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أنّ ترك الأزواج وحده منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع، وكان إمّا الأفصح أو المتعين، وقد اجتمعت العامّة على= القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً، فلما وضح ذلك تبين أنّ هذا المعنى غير مراد، فيتعين حمل من على البعضية فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما إتيان الذكران، والثاني مجانبة إتيان النساء في الماتي رغبة في إتيانهنّ في غيره، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأوّل، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير، والله الموفق.

تعنيف به واحتباس لأملاكه[1] وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾.

و ﴿من القالين﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدودًا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم، ويجوز أن يريد من الكاملين في قلاكم والقلي البغض الشديد كأنه بغض ويقلى الفؤاد والكبد، وفي هذا دليل على عظم المعصية والمراد القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية.

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿مما يعملون﴾ من عقوبة عملهم، وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة.

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزًا﴾ **قُلْتُ:** معناه أنه عصمه وأهله من نلك إلا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة والراضي بالمعصية في حكم العاصي.

فإن قُلْتَ: كان أهله مؤمنين ولولا نلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ **قُلْتُ:** الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.

فإن قُلْتَ: ﴿في الغابرين﴾ صفة لها كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم! **قُلْتُ:** معناه إلا عجوزًا مقدّرًا غبورها ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك[2] غير الناجين قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة.

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾.

والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم وأمّا الإمطار، فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم وعن ابن زيد لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرًا من حجارة.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾.

وفاعل ﴿ساء مطر المنذرين﴾ ولم يرد بالمنذرين قومًا بأعيانهم إنما هو للجنس والمخصوص بالذمّ محذوف وهو: مطرهم.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾.

قرئ: ﴿أصحاب الأيكة﴾ بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو؛ لأن ولولا على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وكان شجرهم الدوم.

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع **قُلْتُ:** قالوا إن شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة وفي الحديث إن شعيبًا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾.

﴿الكيل﴾ على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر

---

(1) قال أحمد: وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذا السورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع كقول فرعون: لأجعلنك من المسجونين، وقولهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ وقولهم: ﴿لنكوننّ من المرجومين﴾ وقوله: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ وقوله تعالى في غيرها: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وكذلك: ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ وأمثاله كثيرة والسرّ في نلك والله أعلم أنّ التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أنّ الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة، = واعتبر نلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا لما كان في نلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير، وانظر إلى المساق وهو قوله: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كيف الحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رنل مشهور بسمة التخلف حتى صارت له لقباً لاصقاً به، وهذا الجواب عامّ في جميع ما يرد عليك من أمثال نلك، فتأمّله واقدره قدره، والله الموفق للصواب.

(2) قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفاً، فاعلم أنّ السرّ الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً، إلا عجوزاً غابرة إلى ما نكر في المتلوّ، هو أنّ المنكور في التلاوة يقتضي الإسجال عليها، بأنها من أمّة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدّمته الآن، فهو أبلغ من مجرّد وصفها بالغبور، والله أعلم.

بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد وكان تركه عن الأمر والنهي دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه.

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾.

قرئ: ﴿بالقسطاس﴾ مضمومًا ومكسورًا وهو الميزان وقيل: القرسطون فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي وقيل: وهو بالرومية العدل.

وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾.

يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه ومنه قيل للمكس: البخس وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًّا، يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث ونلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون نلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن نلك.

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾.

قرئ: ﴿الجبلة﴾ بوزن الأبلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهنّ واحد أي: نوي الجبلة وهو كقولك: والخلق الأوّلين.

فإن قُلْتَ: هل إختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود! **قُلْتُ:** إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرًا ولا يجوز أن يكون بشرًا وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد: وهو كونه مسحرًا، ثم قرر بكونه بشرًا مثلهم.

فإن قُلْتَ: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقنا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؟ **قُلْتُ:** أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك: إن زيد لمنطلق فلما كان البابان أعني باب كان وباب ظننت من جنس باب المبتدأ والخبر فعل نلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقًا وإن ظننته لمنطلقًا.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾.

قرئ: ﴿كسفا﴾ بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة نحو قطع وسدر وقيل: الكسف والكسفة كالربع والربعة وهي القطعة وكسفه قطعه والسماء السحاب أو المظلة، وما كان طلبهم نلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكنيب، ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه، والمعنى: إن كنت صادقًا أنك نبيّ فادع الله أن يسقط علينا كسفًا من السماء.

قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ يريد: أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقابًا آخر فإليه الحكم والمشيئة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.

﴿فأخذهم﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم، يروى أنه حبس عنهم الريح سبعًا وسلط عليهم الومد فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وروى أنّ شعيبًا بعث إلى أمّتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

فإن قُلْتَ: كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر؟ **قُلْتُ:** كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به ولأنّ في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس وتثبيتًا لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير، ورووجعت بالترديد والتكرير لعل نلك يفتح أذنًا أو يفتق ذهنًا أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهمًا قد غطى عليه تراكم الصدا.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾.

﴿وإنه﴾ وإن هذا التنزيل يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات والمراد: ﴿بالتنزيل﴾ المنزل.

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾.

والباء في ﴿نزل به الروح﴾ ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى: ﴿نزل به الروح﴾: جعل الله الروح نازلاً ﴿به على قلبك﴾ أي: حفظكه وفهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾[1].

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾.

(1) سورة الأعلى، الآية: 6.

﴿بلسان عربي﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه[1] فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه وتفهمه قومك ولو كان أعجميًا لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفًا بعدّة لغات فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة، وإن كان ماهرًا بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين.

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾.

﴿وإنه﴾ وإن القرآن يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية وقيل: إن معانيه فيها وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأوّلين﴾ لكون معانيه فيها وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وكذلك في أن يعلمه وليس بواضح.

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾.

وقرئ: ﴿يكن﴾ بالتذكير وآية بالنصب على أنها خبره، ﴿وأن يعلمه﴾ هو الاسم، وقرئ: ﴿تكن﴾ بالتأنيث وجعلت آية اسمًا وأن يعلمه خبرًا وليست كالأولى لوقوع النكرة اسمًا والمعرفة خبرًا، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل في ﴿تكن﴾: ضمير القصة وآية أن يعلمه: جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز على هذا أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلاً عن آية ويجوز مع نصب الآية تأنيث ﴿تكن﴾ كقوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾[2] إلا أن قالوا: ومنه بيت لبيد. فمضى وقدمها وكانت عادة. منه إذا هي عردت أقدامها، وقرئ: ﴿تعلمه﴾ بالتاء و﴿علماء بني إسرائيل﴾ عبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾[3].

فإن قُلْتَ: كيف خط في المصحف ﴿علماء﴾ بواو قبل الألف؟ **قُلْتُ:** خط على لغة من يميل الألف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا.

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾.

الأعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام والأعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد، وقرأ الحسن: ﴿الأعجميين﴾ ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له: أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا: لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها أعجم. قال حميد: ولا عربيًا شاقه صوت أعجمًا، سلكناه: أدخلناه ومكناه، والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانظم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرًا تارة وسحرًا أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿ولو نزلناه على بعض﴾ الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله.

فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾.

﴿فقرأه عليهم﴾ هكذا فصيحًا معجزًا متحدى به لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذرًا ولسموه سحرًا.

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾.

ثم قال: ﴿كذلك سلكناه﴾ أي: مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكنّاه وقرّرناه فيها وعلى هذه مثل الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعنا فيها فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: ﴿ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فإن قُلْتَ[4]: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ **قُلْتُ:** أراد به الدلالة على تمكنه مكذبًا في قلوبهم أشدّ التمكن وأثبته، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح يريدون تمكن الشحّ فيه؛ لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه

---

(1) قال أحمد: يعني بقوله: قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون؛ لأنّ التقدير عنده العلم، والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون، وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(2) سورة الأنعام، الآية: 23.

(3) سورة القصص، الآية: 53.

(4) قال أحمد: وما ينقم من بقائه على ظاهره، إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق، والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحدّ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه. وهو قوله: لا يؤمنون به. **فإن قُلْتَ**:ما موقع ﴿لا يؤمنون به﴾من قوله: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾ **قُلْتُ**:موقعه منه موقع الموضح والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذبًا مجحودًا في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز أن يكون حالاً أي: سلكناه فيها غير مؤمن به.

فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾.

وقرأ الحسن ﴿فتاتيهم﴾بالتاء يعني: الساعة و ﴿بغتة﴾بالتحريك وفي حرف أبيّ: ويروه بغتة.

فإن قُلْتَ:ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فتاتيهم بغتة﴾ فيقولوا **قُلْتُ**:ليس المعنى: ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى: ترتبها في الشدّة كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب مما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشدّ من مقتهم وهو مقت الله وترى، ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾.

﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾تبكيت لهم بإنكار وتهكم ومعناه كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجاب إليها ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذٍ، ويستعجلون على هذا الوجه حكاية حال ماضية ووجه آخر متصل بما بعده وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾أشرًا وبطرًا واستهزاءً واتكالاً على الأمل الطويل.

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾.

ثم قال: هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم، وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾.

وقرئ: ﴿يمتعون﴾بالتخفيف ﴿منذرون﴾رسل ينذرونهم ﴿ذكرى﴾منصوبة بمعنى تنكرة إمّا لأن أنذر وذكر متقاربان فكأنه قيل: منكرون تنكرة وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أي: ينذرونهم ذوي تذكرة وإمّا لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة، والتذكرة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى: منذرون ذوو ذكرى، أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾فنهلك قومًا غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعوّل.

فإن قُلْتَ:كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا، ولم تعزل عنها في قوله: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾[1]؟ **قُلْتُ**:الأصل عزل الواو؛ لأنّ الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾.

كانوا يقولون: إنّ محمدًا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء، وقرأ الحسن: الشياطون ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخيَّر بين أن يجرى الإعراب على النون وبين أن يجريه على ما قبله فيقول: الشياطين والشياطون كما تخيرت العرب بين أن يقولوا: هذه يبرون، ويبرين وفلسطون وفلسطين وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي: الهلاك كما قيل له: الباطل وعن الفرّاء: غلط الشيخ في قراءته الشياطون ظنّ أنها النون التي على هجائين، فقال النضر بن شميل إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه يريد: محمد بن السميفع مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه.

(1) سورة الحجر، الآية: 4.

قد علم أنّ ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى وفيه لطف لسائر المكلفين كما قال، ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾.

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فيه وجهان أحدهما: أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ثم بمن يليه، وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه السلام أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأوّل ما أضعه ربا العباس»[1] والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف وروي أنه صعد الصفا لما نزلت فنادى: الأقرب فالأقرب فخذًا فخذًا وقال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عمّ النبيّ يا صفية عمة رسول الله إني لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم[2]، وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس على رجل شاة وقعب من لبن، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدّقي» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[3] وروى أنه قال: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئًا» ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكنّ من النار فإني لا أغني عنكنّ شيئًا».

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾.

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ومنه قول بعضهم: وأنت الشهير بخفض الجناح، فلا تك في رفعه أجدلاً ينهاه عن التكبر بعد التواضع.

فإن قُلْتَ: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله: **﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾**؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين: المصدّقين بألسنتهم وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾.

﴿وتوكل﴾ على الله يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج من حدّ التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله، وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل وبه قرأ نافع وابن عامر وله محملان في العطف أن يعطف على فقل، أو فلا تدع **﴿على العزيز الرحيم﴾** على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾.

ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دبدنتهم بذكر الله والتلاوة والمراد بالساجدين: المصلون.

وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمّهم، وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني فتلا له هذه الآية، ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث (147 ـ 1218).

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: تبليغه ﷺ وما لقي من قومه، (الحديث: 6551)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشعراء، باب: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الحديث: 4770) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» الحديث: (355 ـ 208).

﴿إنه هو السميع﴾ لما تقوله: ﴿العليم﴾ بما تنويه وتعمله وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم»[1]، وقرئ: ويقلبك.

تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾.

﴿كل أفاك أثيم﴾ هم الكهنة والمتنبئة كشقّ وسطيح ومسيلمة وطليحة.

يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾.

﴿يلقون السمع﴾ هم: الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي: المسموع من الملائكة، وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزورًا وفي الحديث الكلمة يتخطفها الجنيّ فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة[2] والقرّ: الصبّ.

فإن قُلْتَ: كيف دخل حرف الجرّ على من المتضمنة لمعنى الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت ولا تقول: على أزيد مررت! **قُلْتُ:** ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معًا: معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه: أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه كما حذف من هل، والأصل أهل قال، أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم فإذا دخلت حرف الجرّ على من فقدر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت.

فإن قُلْتَ: ﴿يلقون﴾ ما محله! **قُلْتُ:** يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي: تنزل ملقين السمع وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلاً قال: لم تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ بعد ما قضي عليهم أن كل واحد سنهم أفاك؟ **قُلْتُ:** الأفاكون: هم الذين يكثرون الإفك ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى، وأكثرهم مفتر عليه.

فإن قُلْتَ: وإنه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل أنبئكم على من تنزل الشياطين لم فرق بينهن وهن أخوات! **قُلْتُ:** أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معناهن ليرجع إلى المجيء بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرّة بعد كرّة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها، ومثاله أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾.

﴿والشعراء﴾ مبتدأ و﴿يتبعهم الغاوون﴾ خبره، ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسيب بالخرم والغزل والابتهار ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم: إلا الغاوون والسفهاء والشطار وقيل: الغاوون الرواون وقيل: الشياطين وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وقرأ عيسى بن عمر والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب، قرأ: ﴿حمالة الحطب﴾ ﴿والسارق والسارقة﴾ ﴿سورة أنزلناها﴾، وقرئ: ﴿يتبعهم﴾ على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيهًا لتبعه بعضد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾.

ذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم وأن يبهتوا البريّ ويفسقوا التقي وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

بتن بجانبي مصرعات ... وبتّ أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحدّ فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدّ بقوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، (الحديث: 6644)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، الحديث: (112 ـ 426).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق... (الحديث: 7561)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، الحديث: (122 ـ 2228).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعرًا قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا مَن ظُلم﴾[1]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2]، وعن عمر بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة قريش، وعن كعب بن مالك: أنّ النبي ﷺ قال له: «أهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل»[3] وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك[4]، ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأمّلين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين ونلك قوله: ﴿وسيعلم﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الذين ظلموا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه[5] وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها وتفسير الظلم بالكفر تعليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إنّ الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو: النجاة. اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[6].

(1) سورة النساء، الآية: 148.
(2) سورة البقرة، الآية: 194.
(3) أخرجه عبد الرزاق 11/263، (الحديث: 20500)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، (الحديث: 2847).
(4) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، الحديث: (3212 و3213)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، الحديث: (151 ـ 2485).
(5) أبو حاتم وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 2/481 ـ 482.
(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 2/483.
(7) سورة القمر، الآية: 55.
(8) سورة الحجر، الآية: 1.
(9) سورة آل عمران، الآية: 18.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النمل مكية

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

﴿طس﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: إما اللوح وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة وإما السورة، وإما القرآن وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم؛ بالإضافة إليه.

فإن قُلْتَ: لم نكر الكتاب المبين؟ **قُلْتُ:** ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[7].

فإن قُلْتَ: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ **قُلْتُ:** كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم؛ لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك أي كتاب مبين وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾[8]! **قُلْتُ:** لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر ونلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح فالأوّل نحو قوله تعالى: وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا ومنه ما نحن بصدده والثاني نحو قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾[9].

هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿هدى وبشرى﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه: على هي هدى